

الطرح الإدماجي في الجزائر: الجذور والتطور

الأستاذ: عبد الحفيظ بوعبدالله

قسم التاريخ والآثار - جامعة سطيف 2

مقدمة:

أعلن الفرنسيون منذ البداية أن هدفهم هو تمدين الجزائريين، وأن لهم رسالة حضارية يؤكدونها، وتتمثل في إحلال النظم الفرنسية محل النظم الإسلامية القائمة، وجعل اللغة الفرنسية هي لغة السيادة، ومن ثمة كان هدفهم هو الوصول إلي نقطة الاندماج حين يصبح المجتمع الجزائري مجتمعا متفرنسا لغة ودينا ونظما، فما هو مفهوم الإدماج في المشروع الاستعماري؟ وكيف ظهر الاتجاه الإدماجي في الجزائر وأهم طروحاته؟

مفهوم الإدماج ومدلوله في المشاريع الاستعمارية:

الإدماج هو التماثل بين المستعمرة ودولة الأصل في نظام الحكم والتسوية بينهما ويرتكز على فكرة أن إقليم ما وراء البحر ليس إلا امتدادا لدولة الأصل، فيجب أن يوضع تحت نفس النظام هناك أو على الأقل تحت نظام مقارب له، وأن سكان الدولة الذين هم في الجانب الآخر من البحر يجب ألا تكون حقوقهم وضماناتهم أقل من أولئك الذين يعيشون في الجزء الأقدم من الدولة، بمعنى أن فتح مستعمرة جديدة لا يعني إلا مجرد إضافة مقاطعة جديدة للنظام الإداري القائم في الدولة¹.

وظاهر الإدماج غير باطنه، فظاهره هو تحقيق التماثل بين الدولة المستعمرة ودولة الأصل كما لو كانت مجرد امتداد للثانية بمعنى " تحويل المواطن الجزائري معنويا وماديا ليصبح شبيها لمثيله بالميتروبول"²، أما باطنه فهو لا ينطبق في الجزائر إلا على الأرض ومن عليها من المستعمرين دون السكان الأصليين الذين تستهدف السياسة الاستعمارية إقصاءهم وإجلاءهم من أراضيهم، فالذي يريده المستعمرون هو إدماج أرض الجزائر في فرنسا لا التسوية بين الجزائريين والفرنسيين في الحقوق والواجبات كما يقضي بذلك منطق الإدماج، فهو إدماج بالنسبة للمستعمرين ولكنه إخضاع للسكان الأصليين³.

ومنذ الاحتلال سعت فرنسا إلى تحقيق مشروعها المتمثل في محاولة إدماج وطن كان يختلف عنها بشريا وطبيعيا، وهذا المشروع لم يكن وليد القرن العشرين وإنما يعود إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر، وقد بدأ بإلحاق التراب الجزائري بموجب قرار 22 جويلية 1834، ثم جاء مرسوم 4 مارس 1848 ليعزز انتصار دعاة الإدماج، بحيث اعتبر الجزائر قطعة فرنسية، وربط جميع المصالح الإدارية بمثيلاتها في فرنسا⁴، لكن هذا القرار ظل شكليا مادام المجتمع الجزائري معاديا له والمقاومات الشعبية أثبتت ذلك ولم يأخذ مشروع الإدماج صورة واحدة وإنما تكيف تاريخيا حسب المعطيات وتبعا لتصورات واضعيه⁵.

في بداية الاحتلال جاء الجنرال بيجو⁶ بفكرة الإدماج الكامل للشعب الجزائري بتذويبه في العنصر الأوروبي والتخلي عن سياسة الاحتلال الجزئي وتطبيق الاحتلال الكامل، وتحويل الجزائر فعلا إلى أرض فرنسية، وخلق شعب موحد تحت السلطة الأبوية لملك الفرنسيين⁷.

غير أن هذا المشروع لم يأت بثماره، لكنه لم يضعف من دعوة فرنسا إلى إلحاق الجزائر وهذا الفشل كان حدا فاصلا بين مرحلتين في تفكير فرنسا، بين حقبة العشوائية في التوسع وفترة التخطيط للاستعمار، عبر رسم سياسات منتظمة حول مفهوم الإدماج⁸، فجاء نابليون الثالث بمشروع المملكة العربية الذي ضمنه في مذكرته إلى الحاكم العام "مكما هون-Mac-Mahon" بتاريخ 20 جوان 1865⁹ لكن هذه السياسة لم تخرج عن إطارها السياسي العام والمتمثل في دمج الجزائر بفرنسا.

ولكي يعطي لسياسته طابعا عمليا أصدر نابليون "قرارا مشيخيا" في 14 جويلية 1865 عرف بقانون "السناتوس كونسولت-Sénatus Consult" والذي يحدد وينظم الوضع القانوني للأهالي المسلمين بالجزائر، حيث أقر في بنده الأول أن الأهالي المسلمين هم رعايا فرنسيون ولكنهم يضلون خاضعين للقانون الإسلامي في قضايا الأحوال الشخصية، ويستطيع هؤلاء بطلب منهم الحصول على جميع حقوق المواطنة الفرنسية، ولكنهم في هذه الحالة يخضعون للقوانين المدنية الفرنسية¹⁰، وقد كان الهدف من هذا المشروع إدماج الجزائريين تدريجيا في المجتمع الفرنسي.

لما جاءت الجمهورية الثالثة مع "جول فيري" اقترحت الإدماج بواسطة المدرسة باعتبارها أحسن طريقة لفرنسة البلاد كلها، ومع بداية القرن العشرين وتبلور وعي النخبة الجزائرية الجديدة وأشكال المطالبة بالحقوق مع الاحتفاظ بالأحوال الشخصية، وتكونت قناعة عند منظري السياسة الفرنسية بضرورة عزل هذه النخبة عن قاعدتها الشعبية، يمنح أفرادها حقوق المواطنة الفرنسية مع المحافظة على القانون الأساسي للأحوال الشخصية، وقد تجسدت هذه الفكرة من خلال مشروع بلوم-فيوليت¹¹.

إن فكرة استبدال الهوية الجزائرية بالهوية الفرنسية، والأخذ بالنموذج الفرنسي والغربي بشكل عام إنسأقت وراءه بعض أفراد النخبة الجزائرية، وبعد أن كان مجرد إعجاب وطموح أصبح يشكل توجهها وتيارا ثقافيا، واجتماعيا، وسياسيا عرفته الجزائر في النصف الأول من القرن العشرين، فكيف ظهرت هذه النخبة؟ وماهي أفكارها ومرجعياتها؟ وما مصيرها؟.

1. ظهور النخبة الاندماجية وأفكارها:

يجمع المؤرخون ارتباط الفكرة الاندماجية في الجزائر بحركة الشبان الجزائريين، وتعود تسمية الشبان الجزائريين إلى ذلك النموذج من الحركات السياسية التي عرفتها القوميات الحديثة، فعلى موضة تلك الفترة التي كان يتحدث فيها عن "الشبان الأتراك" و"الشبان المصريين" و"الشبان التونسيون" أطلق على أفراد هذه الحركة تسمية "الشبان الجزائريين"¹².

ولم تكن تلك التسمية الوحيدة فهناك من سماهم العمامات الشابة، تميزا عن العمامات القديمة، بينما أطلق عليهم أبو القاسم سعد الله اسم "النخبة"، وفضل البعض مصطلح "انتلجانسيا"¹³، والبعض الآخر مصطلح "الليبرالين"، وهذا الاختلاف في وضع تعريف موحد للشبان الجزائريين يرجع أساسا إلى مكونات هذه الفئة، فهناك من يعرفها على أساس الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها وهي الطبقة الوسطى أو البرجوازية الصغيرة، وفريق ثان أخذ بمعيار ثقافي للتفريق بينها والطبقات الاجتماعية الأخرى¹⁴.

يعرفهم أحد أفراد هذه الحركة وهو "الشريف بن حبيلس": "إنها أي النخبة مجموعة الشبان المتكونين في الجامعات الفرنسية، والذين كانوا قادرين بأعمالهم أن يصعدوا فوق الجماهير، وأن يضعوا أنفسهم في مصاف ناشري الحضارة

الحقيقيين"¹⁵ بينما يعرفهم "جورج مارس-George Marçier" وهو أحد المعلمين المستشرقين في تلمسان "الشبان الجزائريين هم الطبقة التي جمعت بين الثقافة الفرنسية والثقافة العربية، والذين يعرفون في الوقت نفسه عن مؤلفي العصر الذهبي الإسلامي وعن كتابات التراث الفرنسي"¹⁶.

وحسب الجمعي خمري فإن أدق التعريفات ذلك الذي قدمه "أندري سرفي - André Servier" أحد المحررين في جريدة البرقية القسنطينية في كتابه "خطر المستقبل"، فهو يرى أن الشبان الجزائريين هم "الطبقة الحديثة السن التي يقل عمرها عن الأربعين سنة، ولها تكوين ثقافي فرنسي أو مزدوج والتي تتميز بأن لها نزعة سياسية تهدف إلى الحصول على الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية وفي آخر المطاف الحقوق السياسية"¹⁷.

كان ظهور هذه الحركة متأخرا بالمقارنة مع البلدان العربية، ويعود ذلك أساسا إلى قلة المراكز الثقافية والعلمية، وإلى سياسة فرنسا القائمة على تحطيم البنى الأصلية، مما أدى إلى اختفاء المراكز الثقافية التقليدية كالزوايا والكتاتيب القرآنية، التي كان يرى فيها الفرنسيون المشاغل التي تنير طريق الأهالي، كما لم تقدم فرنسا تعليما فرنسيا إلا في الفترة المتأخرة وفي نطاق محدود¹⁸.

يعود تاريخ ظهور هذه الحركة إلى نهاية القرن 19، فعند زيارة "جول فيري" الجزائر أثناء إشرافه على اللجنة البرلمانية سنة 1892 التي جاءت للتحقق في وضعية الجزائر، التقى ببعض أفراد الشبان الجزائريين منهم "المحامي بوضرية" و"الطبيب مرسل" حيث احتجوا له عن التعسفات الإدارية وأثاروا مسألتها الوطنية، والتمثيل البرلماني للمسلمين²⁰.

ظل نمو هذه الحركة بطيئا، فحتى بداية القرن العشرين لم يكن هناك كلام عما عرف بالشبان الجزائريين، وكل ما في الأمر هو نشوء فئة جديدة متعلمة، أو نخبة مثقفة تتبنى النزعة الحديثة في نظرتها إلى المستقبل، وتتحدث عن التقارب بين المجموعتين الجزائرية والفرنسية تمهيدا لإدماج العنصر الجزائري المسلم في العائلة الفرنسية.

وقد تجلّى نشاطها في شكل مبادرات فردية وجماعية، في المجال الاجتماعي والثقافي وخاصة الصحفي بإصدار عدة جرائد كجريدة "المصباح" في وهران سنة 1907. و"الإسلام" في عنابة، ثم العاصمة سنة 1910، وهي في معظمها صحافة معتدلة محررة في غالبيتها باللغة الفرنسية حتى تتفادى الاصطدام بالإدارة الاستعمارية. بل وتلجأ أحيانا إلى استخدام عناوين تدل على ارتباطها بفرنسا مثل جريدة المصباح التي جعلت لها عنوانا ثانويا من أجل فرنسا بواسطة العرب لأجل العرب بواسطة فرنسا²¹.

أدركت الحركة الجديدة استحالة مواجهة النظام الاستعماري باستخدام الوسائل القديمة كما اقتنعت أن الاستمرار في رفض الاستعمار كواقع في البلاد، سيؤدي إلى تكريس الامتيازات السياسية والاقتصادية للمستوطنين، ومن ثمة فإن أول عمل قام به الشبان الجزائريون هو الدخول في منافسة الكولون معتمدين على طريقة جديدة تختلف عن طريقة الأجداد وهي الحوار الهادئ بواسطة الصحافة والعرائض والمذكرات والوفود²².

لم تبرز مواقفهم السياسية والاقتصادية ومعارضتهم العلنية للسياسة الفرنسية بوضوح إلا في عام 1908، حين صدر مرسوم ينص على إحصاء الشبان الجزائريين بقصد تجنيدهم، ثم إصدار الحكومة قرار التجنيد في 03 فيفري 1912، حيث وجدوا فيه وسيلة هامة للضغط للحصول على بعض الحقوق، تتلخص في مجملها حول المساواة، وكانوا بعيدين عن المطالبة بالاستقلال الكامل عن الوطن الأم، لذلك يمكننا القول إن النخبة كانت تثق في الحكومة الفرنسية في باريس ووعودها، وترى أن العدو الأول للجزائريين هم الكولون²³.

وهم بذلك يميزون بين فرنسا الديمقراطية وفرنسا الاستعمارية، لذلك نجدهم يستجدون بالليبراليين الجمهوريين لمعارضة المعمرين المستغلين ويمكن الإطلاع على أفكارهم من خلال البرنامج الذي قدموه إلى الحكومة الفرنسية في جوان 1912 والذي تضمن²⁴:

- إلغاء القوانين الاستثنائية، فالقانون الفرنسي في الجزائر جعل الجزائريين في وضعية متناقضة فهم رعايا فرنسيون من جهة وخاضعين لقوانين الأنديجينا من جهة أخرى.

- التمثيل النيابي للجزائريين في المجالس العامة في الجزائر وفي باريس، وهي من أهم القضايا الأساسية التي دافع عنها الشباب الجزائريون، لأن إبعادهم من المشاركة في الحكم يعني تمكين الكولون من إدارة شؤون الجزائر.

كما تضمن هذا البرنامج مطالب أخرى تتعلق بنشر التعليم، والمساواة في الوظائف وتطوير الخدمات الاجتماعية، وإصلاح نظام الخماسة والمحاكم الردعية وتحسين وضع المرأة... إلخ²⁵.

والملاحظ أن مطالب النخبة بشكل عام قبل الحرب العالمية الأولى هي إصلاحية بحتة لم تتجاوز الدعوة إلى المساواة والمشاركة في الحكم، وتوجيه المجتمع الجزائري نحو النموذج الأوروبي وهي تبرز مدى تعلق هذه الفئة بالارتباط بالوطن الفرنسي، فجاءت مطالبها خالية من أي نزعة ثورية²⁶.

2. المرجعية الاجتماعية والسياسية للنخبة الاندماجية

مهما كان الاختلاف حول تحديد تعريف موحد للشباب الجزائريين أو الجزائر الفتاة أو النخبة، فكلها تسميات تؤدي إلى إطار سياسي وإيديولوجي واحد يتبنى في المراحل الأولى من القرن العشرين فكرة الإدماج عن طريق التمثيل بفرنسا، ويعود هذا الاختلاف أساسا إلى مكونات هذه الطبقة، فهناك من يعرفها على أساس الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها، بينما أخذ البعض المعيار الثقافي للتمييز بينها وبين الفئات الأخرى²⁷.

تبين بعض الدراسات حول الأصول الاجتماعية للنخبة الجزائرية في الفترة 1900-1930 أن 58% من الشباب الجزائريين ينتمون إلى البرجوازية العليا أو الأرستقراطية، وأن 41 % من أفرادها ينتمي أبائهم إلى فئة ملاك الأراضي والعقارات، كما أن 16 % منها ينتمي إلى فئة البرجوازية التجارية، وعلى العموم فإن فئات هؤلاء هي إما الأرستقراطية الريفية والحضرية، أو البرجوازية الحضرية التي ترتبط بالمدن الكبرى كقسنطينة مثلا، أو ترتبط بخلفية اجتماعية حضرية عريقة كالفخاريين في تلمسان، أما بقية أفراد النخبة فيشكلون طبقة وسطى تتألف من البرجوازية التي تتراوح بين البيروقراطية وبين ملكية الأرض²⁸.

يحدد "جورج مارسسي George Marçier" الفئات الاجتماعية للنخبة

بقوله²⁹: "إنكم أنتم المتجذرون في التراب الجزائري، والمتخرجون من ثانوياتنا

ومدارسنا، إنكم بثقاقتكم أكثر منه بانتمائكم الاجتماعي، تنتمون إلى ما يمكن أن نسميه بكل استحقاق "النخبة الأهلية" إن هذه النخبة التي لها مكانتها بالنسبة للرأي العام الفرنسي، لأن لها بعض مظاهر النخبة الأوروبية ولكن لا وزن لها بالنسبة إلى جماهير الأهالي، هذه النخبة المكونة من بعض الأطباء الشرفاء وبعض المحامين الشطار، وبعض الصحفيين اللامعين وكذلك المعلمين الذين يعون تماما دورهم في نشر الأنوار والواجب الذي عليهم تجاه فرنسا التي صنعت منهم مجانا ما هم عليه اليوم..".

بينما يرى فرحات عباس أن معظم الشبان الجزائريين ينتمون إلى أصول متواضعة وفقيرة وفلاحية، وأن الارتقاء الاجتماعي لعائلته مثلا وقع عرضا فقط³⁰، ولذلك لا يمكن الجزم بالأصل الموحد لجميع أفراد النخبة لكن نجد معظمها ينتمي إلى الطبقة الوسطى، أو ما يطلق عليها بالبرجوازية الصغيرة التي فرضت نفسها في السلم الاجتماعي عن طريق الوظيفة³¹.

إذا كانت النخبة الاندماجية تختلف في أصولها الاجتماعية، فهل هي كذلك في مرجعياتها الفكرية والسياسية؟.

يعتقد شارل أندري جولي أن هؤلاء قادمون من آفاق فكرية شديدة التنوع، فمنهم من كانوا من أتباع الإيجابية، ومنهم من كانوا لا يقرون إلا بما يقبله العقل مثل الدكتور ابن جلول ومنهم من كانت تحدوهم روحانية غامضة وحماس حائر مثل فرحات عباس، ومنهم من كانوا ملحدون ماسونيين مثل الدكتور لخداري، ومنهم من كان يستهويهم الحماس الثوري مثل بومنجل، ومنهم من كانوا لا يكثرثون بالعقيدة الإسلامية بل عقيدتهم اشتراكية³².

ومهما اختلفت منطلقاتهم الفكرية فإنهم يشتركون في مرجعيتهم إلى الثقافة الفرنسية والفكر الليبرالي الذي جاءت به الثورة الفرنسية، ويعود ذلك إلى كون النخبة في الجزائر هي نتاج المدرسة الفرنسية من أساتذتها أخذت حرية التفكير، ولكنها احتفظت بطريقتها الخاصة في نقد الأوضاع القائمة، فهم يقدرّون الإنجازات الحضارية لفرنسا ولكنهم كانوا يتأسفون لنقائصها، أما قضية السيادة الفرنسية فلم تكن مطروحة نهائيا في برامجها أو أفكارها، وباسم الأفكار الفرنسية كانت هذه النخبة تحارب الظلم الذي يقع عليها والذي يتنافى مع مبادئ الثورة الفرنسية³³، ونجد فرحات عباس مثلا يتحدث باعتزاز عن هذه المدرسة وأساتذتها

الذين كانوا في نظره شديدي الإيمان بالمبادئ الجمهورية والديمقراطية، وينفي عنهم أي صفة عنصرية تجاه المسلمين الجزائريين³⁴.

لم يكن الفكر الفرنسي الليبرالي مرجعيتهم الوحيدة، بل هم يحاولون في بعض الأحيان العودة إلى الإسلام كمحاولة للتوفيق بينه وبين المبادئ الليبرالية، ففرحات عباس مثلاً يعترف أن ثقافته العربية محدودة، وأنه مدين للفكر الفرنسي ولروح الكتاب الفرنسيين لكنه في الوقت نفسه متمسك بالإسلام كوطن روحي³⁵، فهؤلاء المتطورون لهم عقلية لائكية و غربية مع إحساس وشعور بالانتماء إلى الإسلام، لقد فهموا أن بعدهم عن الإسلام يضعف مكانتهم، لذلك عملوا أن يكون له مكانة مميزة في مطالبهم رغم طغيان المطالب الاجتماعية والسياسية³⁶.

أما مرجعيتها السياسية فإنه من الواضح تأثر النخبة الاندماجية بحركة تركيا الفتاة مع بداية القرن، والتي كانت تمهد للقضاء على الخلافة العثمانية وبناء دولة علمانية حديثة، اتخذت من مقومات الحضارة الغربية أسلوباً ومنهجاً لقيادة المجتمع³⁷، ورغم محاولة الاستعمار فصل الجزائر عن إطارها العربي الإسلامي إلا أن الجزائريين بقوا من الناحية المعنوية يشعرون بتلك العلاقة العميقة الجذور مع الأتراك العثمانيين، وقد عبروا عن عواطفهم تلك تجاه الخلافة بالأدب الشعبي تارة وبجمع الأموال تارة أخرى³⁸.

نال كمال أتاتورك إعجاب الجزائريين، وخاصة النخبة الاندماجية التي رأت في التجربة الكمالية نموذجاً يحتذى به خاصة توجهها اللائكي³⁹، كما كان تأثر الجزائريين واضحاً بحركة الشبان التونسيين بتقليدهم في إنشاء النوادي والجمعيات والصحافة، يضاف إلى ذلك أن بعض الشباب التونسيين ينحدرون من أصول جزائرية كالشيخ عبد العزيز الثعالبي والشاب حسن قلاتي⁴⁰.

3. تصنيف النخبة الاندماجية:

بحلول الحرب العالمية الأولى غاب نجم النخبة وضاعت مطالبه في متاهات الحرب وانشغالاتها وما أن وضعت الحرب أوزارها حتى عادت النخبة إلى مسرح الحياة، لكن بوجه جديد وعلى نطاق أوسع⁴¹، فالحرب قد هزت ذهنياتهم وجعلتهم يخرجون من حالة الانطواء التي وضعتهم فيها فرنسا، وينظرون إلى الأوضاع الجزائرية في ظل الاستعمار نظرة انتقادية⁴².

إن نهاية الحرب العالمية الأولى هي الفترة التي برزت فيها توجهات النخبة بكل وضوح فقد كانت الانتخابات البلدية في سبتمبر 1919 المناسبة التي انقسمت فيها النخبة إلى جناحين سياسيين: الليبراليين دعاة التجنيس، والحزب الإصلاحي بزعامة الأمير خالد، وشكلت مسألة الأحوال الشخصية نقطة الخلاف الأساسية، فقد أدت الدعوة إلى الإدماج والتجنيس الجماعي بغض النظر عن القضية الدينية إلى فقدان النخبة لمركزها في نفوس الجزائريين⁴³.

وإذا كان الاختلاف غير مطروح بالنسبة لمرجعيتها الفكرية الغربية إلا أن موقفها من الإسلام وقيمه وحضارته هو الذي جعلها تصنف إلى فئتين:

الفئة الأولى: هي التي انتزعت جذورها من المجتمع الجزائري وصارت تنفي انتماءها إلى مجتمعتها الأصلي، وأحيانا تنفي صلتها بالإسلام وابتعدت عنه إلى درجة التجنس والاندماج في الحياة الفرنسية⁴⁴، وهؤلاء يضعون أنفسهم داخل النموذج الحضاري الفرنسي ويدعون إلى الاندماج التام في فرنسا ثقافيا وسياسيا وحتى دينيا، ويعتبرون الدين عاملا معرقلا لفرنسة الجزائر ومنهم حتى من يروج لفكرة انفصال الجزائر عن العالم العربي والإسلامي كإسماعيل حامت⁴⁵.

ويعتبر الشريف بن حبيب مؤلف كتاب الجزائر فرنسية كما يراها أنديجان نموذج المثقف الاندماجي فكتابه الصادر سنة 1914 عبارة عن مرافعة من أجل الاندماج والارتباط بفرنسا، فهو يظهر في كتابه احتقاره للوسط التقليدي، ويرفع في المقابل شأن الحضارة الغربية يقول: "هذا الحكم عبارة عن اعترافات محتشمة صادرة عن إنديجان جزائري تربي على مقاعد مدرسة فرنسية يحب الفرنسية كثيرا ويعود لها الفضل في ترقيته لوظيفته في الإدارة الفرنسية التي يعترف لها بتعليم الحقيقة، فرفض أن يكون من طراز هؤلاء الجاحدين"⁴⁶.

وهناك من ينادي صراحة إلى الاندماج في الثقافة اللاتينية والديانة المسيحية، والتخلص من مبادئ الإسلام التي في نظرهم تتناقض مع المدنية الغربية، وتعتبر مجلة "صوت المستضعفين la voix des humbles"⁴⁷ و"جريدة صوت الأهالي la voix indigène"⁴⁸ أفضل الأدوات التي كانت تعبر عن أفكارهم وطموحاتهم.

الفئة الثانية: كانت هذه الفئة من النخبة تطالب بالإدماج لكن مع التمسك بالقانون الأساسي للأحوال الشخصية، ويمثلها عدد كبير من أعضاء تنظيم فيدرالية المسلمين الجزائريين المنتخبين، التي تأسست في 11 سبتمبر 1927 في الجزائر العاصمة برئاسة بن تامي⁴⁹.

وكان معظم أعضائها من المنتخبين في المجالس المختلفة وكان "أكثرهم متعلمين بالفرنسية ومدمجين جزئياً يمثلون الإنتلجانشيا الجديدة التي لم تكن تطعن في شرعية النظام الاستعماري المسيطر لكنها لم تكن تقبل بدور الخادم المطلوب منها"⁵⁰.

كان برنامجهم معتدلاً يقوم على المطالبة بالمساواة وبكل الحقوق السياسية التي يتمتع بها المستوطنون مع الاحتفاظ بأحوالهم الشخصية⁵¹، وهي نفس المطالب التي نادوا بها قبل الحرب العالمية الأولى وأعادها الأمير خالد، أما دور فرنسا في نظرهم فهو مساعدتهم على تحقيق الاندماج وإخراجهم من التناقض الذي وضعهم فيه القانون الفرنسي، وعبر فرحات عباس عن ذلك بقوله: "حين يقول الجزائري إنه عربي يجيبه القضاة الفرنسيون لا إنك فرنسي، ولكن حين يطالب بحقوق المواطن الفرنسي يجيبه نفس القضاة لا إنك عربي"⁵².

ورغم اعتدالها واعتدال مطالبها إلا أنها كانت باستمرار تصطدم بتعصب المستوطنين من جهة وبعدم اكتراث الحكومة الفرنسية ونفور الجزائريين من جهة أخرى، لأنها لم تستوح أي مطلب من مطالبها من مقومات الشخصية الوطنية، فبرنامجها كله يدور في فلك القانون الفرنسي والتعليم الفرنسي والحضارة الأوروبية، وكأنها كانت راضية بالثقافة الفرنسية روحاً وبالحضارة الأوروبية جسداً، وبالإصلاحات الجوفاء وسائل تنفض بها غبار الكولون واستبدادهم⁵³.

وحتى سنة 1936 لم يتغير برنامج هذه الفئة حيث بقي يركز على المسائل السياسية والعسكرية والثقافية وغيرها، وأن المطالب الجديدة كإصلاح القضاء الإسلامي، والزيادة في عدد المدارس وفصل الدين عن الدولة، هي نتيجة دروس حوادث قسنطينة 1934 و تأثير جمعية العلماء المسلمين⁵⁴، ونعتقد أن إثارة هذه المطالب يعود إلى الطموح السياسي لهذه الفئة الذي يتطلب منها الاقتراب من قيم المجتمع لكسب أصواته، لأن وصولهم إلى المناصب السياسية يمر حتماً عبر الأهالي.

وما يجب التأكيد عليه أنه رغم هذا الاختلاف بينهما والذي ينبع عن القناعة أحيانا أو المناورة أحيانا أخرى، فإن الانبهار بمبادئ الثورة الفرنسية في طموحاتهم وأفكارهم هو القاسم المشترك، وإن اختلفا فقط في الأسلوب ومسألتي الهوية ومواجهة الاستعمار فكلاهما لا يتصور نموذجا سياسيا إلا في الإطار الفرنسي.

4. مصير مشروع الإدماج:

تميزت الساحة السياسية الجزائرية منذ الاحتفالات المئوية بحركة سياسية نشيطة، لكن أهم ما سيطر عليها مشروع "بلوم فيوليت" والمؤتمر الإسلامي والتي علقت عليها النخبة الاندماجية آمالا كبيرة.

صعدت الجبهة الشعبية للحكم في فيفري 1936 برئاسة "ليون بلوم"⁵⁵ وأحييت مشروع فيوليت⁵⁶ والذي تتلخص فكرته الأساسية في دمج فئة من الجزائريين، ومنحها حق الانتخاب بدون تخليها عن أحوالها الشخصية الإسلامية، وحذر فيوليت الكولون بأن الجزائريين يبحثون عن وطن وإذا لم تمنح لهم وطنًا فسيجدون وطنًا آخر⁵⁷.

وقد تعلق النخبة الاندماجية بهذا المشروع لأنها كانت ترحب بفكرة الإدماج عن طريق الحقوق لا عن طريق التجنيس، فالأول يجعل منهم فرنسيين مسلمين أما الثاني فيجعل منهم فرنسيين مسيحيين أو لا دين لهم⁵⁸، وقد تحمست النخبة الاندماجية للمشروع وأسهمت بشكل كبير في الدعاية له⁵⁹، وعلقت عليه آمالا كبيرة واعتبرته المبادرة الوحيدة القادرة على منح تمثيل حقيقي للمسلمين وقد عبروا عن ذلك بالقول: "قصارى بغيتنا طال الزمن أو قصر ألا يوجد في القطر الجزائري إلا الفرنسيون، عليهم واجبات واحدة ولهم حقوق واحدة وهدف واحد في بقاء السيادة الفرنسية... وبعبارة أخرى وملخصة لما سطرناه نريد أن يعد القطر الجزائري، لا مستعمرة فقط بل مقاطعة فرنسية حقيقية"⁶⁰.

ورغم ما قيل وكتب عن هذا المشروع، فهو في الواقع لا يخرج عن تنفيذ خطة دمج الجزائر في فرنسا بصورة تدريجية، وبذل حديث الفرنسيين عن هذا الدمج بصورة نظرية، أراد فيوليت أن يقع فعلا الدمج عن طريق النخبة الجزائرية المتخرجة من المدارس الفرنسية⁶¹، وكغيره من المشاريع الإصلاحية الفرنسية كان مصيره الفشل كذلك.

شكل مشروع بلوم-فيوليت، قمة مطامح النخبة الاندماجية فهل بفشله فشل المشروع الإدماجي في الجزائر؟

من الأسباب الرئيسية لفشل المشروع الإدماجي الذي كانت تمثله النخبة هو رفض المجتمع له، فبالرغم من سياسة التحطيم الفرنسية، إلا أن العائلة الجزائرية بقيت محافظة على قيمها الإسلامية والتي كانت تنظر بسلبية إلى قضية التجنس والانسلاخ عن الهوية، فكانت بذلك تمارس ضغطا خفيا معارضا لفكرة الإدماج، لأنه يتعارض وشخصيتها، كان الاعتقاد السائد أن الحصول على الجنسية الفرنسية بمثابة ردة عن الدين⁶²، فوَقَّعت بذلك الاعتبارات الدينية في وجه دعوة بعض الجزائريين للتجنس والاندماج، وقد كان لجمعية العلماء دور في كبح هذه الطموحات، فقد كانت ترد على أنصار الإدماج بأن الشعب الجزائري شعب عربي ومسلم يرفض أن يكون فرنسيا⁶³.

يضاف إلى ذلك أن أغلب أفراد هذه النخبة " لم يكونوا ينظرون باتجاه المجتمع الجزائري أصلا، وإنما معتدين بانتمائهم الطبقي البرجوازي باعتبارهم طبقة جديدة مشكلة في الأصل من الأفراد القادمين من التعليم الفرنسي والإدارة الاستعمارية، وأغلبهم ينظر إلى فرنسا لا إلى المجتمع الجزائري، فهم يعتقدون أنهم طبقة ممتازة تطفو على سطح بحر من الغوءاء والمشايين والمتعصبين والجهلة"⁶⁴.

هذه النظرة الاستعلائية هي سبب ضعف إيديولوجية النخبة الاندماجية وانصراف الجماهير عنها فهي لم تكن مندمجة في المجتمع وإنما نخبة وسط الشعب⁶⁵، فولاءها لفرنسا وابتعادها من حيث أفكارها عن البعد العربي الإسلامي جعلها عاجزة عن فرض نفسها على المجتمع، على العكس أصبحت معزولة وتأثيرها ضعيف، وحسب سعد الله فإن أخطر شيء كان يواجه هذه الجماعة هو الضياع والخضوع للتأثيرات الخارجية ومن ثمة فقدان سلاح المبادرة⁶⁶.

ومن أسباب فشل المشروع الإدماجي كذلك المعارضة الشديدة للمعمرين مستخدمين وسائل الضغط المختلفة، فأثناء عرض مشروع بلوم فيوليت مثلا قدم 300 شيخ بلدية فرنسي استقالتهم الجماعية، لأن قبول المشروع في نظرهم يعني حصول الجزائريين على المواطنة الفرنسية وبالتالي التمتع بجميع الحقوق، أخطرها تزايد عدد الجزائريين في المجالس المحلية، ويصبح المعمرين في هذه الحالة

خاضعين لأصوات عدد كبير من المتعصبين المسلمين⁶⁷، ويعلق رئيس بلدية قسنطينة "مورتنو" على ذلك "الأهالي 07 مقابل فرنسي واحد، وبمقتضى زيادة النسل سيحصلون على الأغلبية في القوائم الانتخابية وسيؤدي ذلك إلى نهاية الاستعمار الذي يتوقف عليه مصيرنا"⁶⁸.

وبفضل مشاريع الإدماج أصيبت النخبة بخيبة كبيرة وفقدت كل أمل في الحصول على حقوق من شأنها إصلاح أوضاعهم وأوضاع الجزائر، وكان من نتيجة ذلك أن انهارت ثققتها تماما في فرنسا وتحطمت العلاقة التي كانت تربطها، وقد انعكس هذا الفشل مثلا على أنصار المؤتمر الإسلامي، الذي كان عليه أن يحصل على إصلاحات مهما كلفه الأمر لمواصلة عمله فأخفق في تحقيقها، وفقد بذلك كل فاعلية له وسرعان ما تشتتت وحدته وتخلّى عنه قادته بعد أن خابت آمالهم في عدالة وديمقراطية فرنسا⁶⁹.

بعد أن كانت النخبة الجزائرية تعلن، وتتمسك بالإدماج، وتعتمد في جميع مطالبها إلى درجة التكرار لوجود الوطن الجزائري، وتعتبر الوطنية اتهاماً، حدث تحول كبير في سياستها بعد أن تحطمت آمالها بعد الخيبات المتكررة أمام الوعود الفرنسية، فأصبحت أقل توجهها نحو الاندماجية وأكثر تقرباً من التيار الوطني وانتقاداً للسياسة الفرنسية⁷⁰.

ويعلل فرحات عباس هذا الفشل بكونه ناتج عن الذهنية المتخلفة للإدارة الاستعمارية التي كانت أسيرة مصالح المعمرين⁷¹، ونعتقد أن انتشار الأفكار الوطنية الاستقلالية نتيجة الدور الذي قام به حزب نجم شمال إفريقيا ثم حزب الشعب، والعمل الكبير الذي قام به العلماء في محاربة سياسة الإدماج والتجنس قد أسهم في إفشال المشروع الإدماجي.

لقد شعر هؤلاء أنهم يقدمون مطالب أبعد ما تكون عن اهتمامات القاعدة الشعبية وأنهم يدفعون ثمن مطالبهم السياسية المتذبذبة، وكان عليهم أن يختاروا التوجه إما إلى القاعدة الشعبية وإما إلى فرنسا⁷²، لقد أصبح الشعب الجزائري أكثر وعياً لذاته وبعنانيته العربية الإسلامي وهو ما جعل الفكرة الاندماجية ضعيفة ومنبوذة، وهو كذلك ما دفع النخبة إلى التقرب من التيارات الوطنية كما حدث في المؤتمر الإسلامي، يقول سعد الله: "رغم هذه اللهجة فإن النخبة قد ظلت تعمل وتفكر

في إطار الإسلام، وهناك عدة أحداث تثبت أنها قد عادت إلى نفس الطريق الذي سار عليه العلماء، سواء عن اقتناع شخصي أو عن تحالف مصلحي⁷³.

رغم فشل مطالب النخبة الاندماجية إلا أنها شكلت جماعة الضغط جعلت الإدارة الاستعمارية تأخذها في الاعتبار كلما قررت إحداث مشروع في ميدان الشؤون الأهلية، كما عملت هذه النخبة على التعريف بالوضع في الجزائر بتقديم الكثير من الحجج والبراهين لإدانة وفضح الاستعمار⁷⁴، هذا إضافة إلى ما نشرته منذ بداية القرن من أدب قومي بالغ الأهمية وثورة على كل ما هو بال في الهياكل التقليدية، وبتأثيراته السلبية، وتوعية الناس بعلاقات التبعية داخل المجتمع⁷⁵.

خاتمة

اعتقد دعاة الإدماج وهم نتاج المدرسة العلمانية، والجمهورية الفرنسية أنه لا مvenir ولا مستقبل للجزائر إلا في اتجاه فرنسا المثالية، فرنسا الحرية، وعملوا بكل الطرق وفي مختلف الاتجاهات لإقناع الجزائريين بأن فرنسا هي الوطن الأم، لكن مختلف تجاربها سواء مع الجزائريين أم مع الإدارة الاستعمارية انتهت إلى الإخفاق فكانوا أول ضحايا النظام الاستعماري، وستدفع تجربة الحرب العالمية الثانية إلى تفتح فكر بعض أفرادها، والابتعاد عن أحلام التمثيل.

الهوامش :

- (1) محمد، حسنين، الاستعمار الفرنسي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 4، الجزائر، 1986، ص. 33
 - (2) أمحمد، مالكي، الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، 1994 ص. 33 .
 - (3) المرجع نفسه، ص. 37.
 - (4) Kamel, Kateb, "Les politiques françaises d'assimilation en Algérie", Institut national d'étude démographique.
 - (5) Kamel, Kateb, op, cit.
 - (6) Thomas, bugeaud 1774-1849 من كبار القادة العسكريين الفرنسيين الذين اشتبهوا في الحروب النابوليونية، وفي احتلال الجزائر خاصة الحروب التي خاضها مع الأمير عبد القادر، عين حاكم عام عسكري من 1840-1847 برتبة
- مارشال، أنظر: Encarta, 2006

- (7) إبراهيم، لونيبي، "الفكرة الإدماجية في الجزائر 1830-1945، بين الطرح الفرنسي والموقف الجزائري"، مجلة الرؤية، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، العدد 1، ص ص.110-109.
- (8) أمحمد، مالكي، المرجع السابق، ص.166.
- (9) تضمنت الرسالة ثماني وثمانين صفحة موثقة بمعطيات خاصة بالوضع الإداري والاجتماعي واقتراحات لتحديد السياسة الاستعمارية تجاه الجزائر، أنظر: المرجع نفسه، ص.172.
- 10) Patrick,weil,le statut des musulmans en Algérie colonial,op,cit.
- (11) الطاهر، عمري، النخبة الوطنية الجزائرية ومشروع المجتمع 1900-1940، المرجع السابق، ص ص.418-419.
- (12) صاري، قداش، المرجع السابق، ص.17.
- (13) صاري، قداش، المرجع السابق، ص.17.
- : تعبير روسى أطلق على الطبقة المستتيرة أيام الثورة البلشفية وهو لفظ Intelligentsia
 intelegens استخدم منذ أواخر القرن 19 كمرادف اشتقت دلالته عن الأصل اللاتيني
 ويعني أولئك الذين تتفوقوا ثقافة علمية انعكست على تركيبهم الاجتماعي أو النخبوي، وهم
 يتمتعون بنشاط مبدع ومؤثر في هياكل الدولة، أنظر:
- زين الدين، بوزيد، الأصول الاجتماعية والمرجعيات الفكرية للنخبة المثقفة الجزائرية (1900-
 1930)، ماجستير في علم الاجتماع التنموية، جامعة منتوري قسنطينة، 2000-2001،
 ص.69
- (14) الجمعي، خمري، حركة الشباب الجزائريين والتونسيين (1900-1930) دراسة
 تاريخية وسياسية مقارنة، أطروحة دكتوراه، جامعة منتوري، قسنطينة، 2002-
 2003، ص.121
- 15) Chérif Ben Habbiles, l'Algérie française, vu par un indigène,
 édition, imprimerie orientale fantana frères, Alger, 1914, p.105.
- (16) سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، 1900-1930، ص.167.
- (17) خمري، المرجع السابق، ص.123.
- (18) خمري، حركة الشباب الجزائريين والتونسيين، مرجع سابق، ص.90
- (19) طبيب جزائري من وهران، كان أبوه ضابطا في فرسان الصباحية في الجيش
 الفرنسي، ويقال انه أول طبيب مسلم تخرج من مدرسة الطب الفرنسية، متجنس ومن

- مؤسسي نادي صالح باي، من مؤلفاته كتاب المسألة الأهلية، أنظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع السابق، ص. 231.
- (20) صاري، قداش، المرجع السابق، ص. 16.
- (21) صاري، قداش، ص. 18.
- (22) سعد الله، الحركة الوطنية 1900-1930، مرجع سابق، ص. 181.
- (23) يوسف، مناصرة، الاتجاه الثوري في الحركة الوطنية مابين الحربين العالميتين، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988 ص. 12.
- (24) بوعزيز، الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية، ص. 26.
- (25) سعد الله، الحركة الوطنية 1900-1930، ص. 426.
- (26) وهي تقريبا نفس المطالب التي تبنتها في العشرينات و الثلاثينات أنظر هذه المطالب في **"Liberté Egalité- Fraternité, au peuple indigène musulman d'Algérie"** La voix des humbles, n°106, decembre 1931
- (27) سعد الله، الحركة الوطنية، 1900-1930، ص. 167.
- (28) بوزيد، الأصول الاجتماعية والمرجعيات الفكرية للنخبة المثقفة الجزائرية 1900-1930، ص. 152.
- (29) Ben Habiles, op, cit, pp.1-2.
- (30) عباس، ليل الاستعمار، مرجع سابق، ص. 128.
- (31) Abdelkader, Djeghloul, **la formation des intellectuels Algériens modernes 1880-1930** OPU , Alger, 1980, p.10
- (32) جوليان، المرجع السابق، ص. 150.
- (33) Roger, Le Tourneau, **évolution politique de l'Afrique du nord musulmane 1920-1961** librairie Armand colin, paris, 1962, p.315
- (34) عباس، ليل الاستعمار، مرجع سابق، ص. 136.
- (35) Abbas, op, cit, p.89.
- (36) Luc de la barre, op., cit., p.35
- (37) خمري، المرجع السابق، ص. 144. وقد كتبت جرائدهم الكثير من المقالات التي تعبر عن إعجابهم بالثورة التركية **"la révolution turque"**, la voix des humbles , n°61, juin 1928 أنظر مثلا:

- (38) سعد الله، الحركة الوطنية 1900-1930، ص ص.137-138
- 39) Ferhat, Abbas, "**islam en deuil, le plus grand musulman des temps présents meurt a Constantinople**", l'entente franco – musulmane ,n°97,17novembre1938
- (40) خمري، حركة الشبان الجزائريين والتونسيين ،مرجع سابق، ص.148
- (41) مناصرية، المرجع السابق، ص.12.
- 42) Stora, Daoud, op, cit, p.34.
- (43) مناصرية، المرجع السابق، ص.13
- (44) عمري، المرجع السابق، ص.252
- (45) نفس المرجع و الصفحة
- 46) pervillé, les étudiants Algériens de l'université Françaises;op, cit, p.81
- (47) تأسست سنة 1922 عل يد رابح زناتي وكان شعارها، بعيدون عن الأحزاب، بعيدون عن القصاصد من أجل ترقية الأهالي عن طريق الثقافة الفرنسية: أنظر: العمري، المرجع نفسه، ص.390.
- (48) تأسست سنة 1929 أسسها كذلك رابح زناتي وكان شعارها "جريدة الاتحاد الفرنسي - الإسلامي"
- (49) سعد الله، المرجع السابق، ص.351.
- 50) Mahsas, op, cit, p.49.
- (51) أنظر برنامج فيدرالية النواب في : collot, Le mouvement nationale Algérien Textes (1912-1954) , pp.40-41.
- (52) عباس، ليل الاستعمار، مرجع سابق، ص ص، 144-145
- (53) مناصرية، المرجع السابق، ص.15
- (54) المرجع نفسه، ص.16
- (55) Leon, Blum (1872-1952)، أديب ورجل دولة ترأس أول حكومة للجبهة الشعبية من جوان 36 إلى جوان 1937 ثم من مارس إلى أفريل 1938، ثم من سبتمبر 1946 إلى جانفي 1947، أنظر: Encarta, 2006

56) Maurice, Viollete (1870-1960)، درس الحقوق شغل مناصب سياسية، نانبا منذ

عام 1902، ثم عضو مجلس الشيوخ رئيسا لبلدية Dreux، ثم حاكما على الجزائر

1925-1927، ثم وزيرا مكلفا بالشؤون الأهلية في حكومة ليون فيوليت معروف عنه

نشاطه ضمن الحزب الاشتراكي، أنظر: Encarta, 2006.

57) صدر المشروع سنة 1931 في كتاب من 04 أبواب و 08 فصول و 50 مادة عندما كان

حاكما عاما في الجزائر أنظر مشروع القانون في: **Maurice, Violette, l'Algérie**

vivra-t-elle?, librairie filix algan, France, 1931, pp.375-503

58) سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية 1930-1945**، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب

1986، ج 3، ص ص. 60-61.

59) انظر تعاليق جريدة صوت المستضعفين :

L.Tahrat, l'algerie vivra-t-elle note d'un ancien Gouverneur

général, La voix des humbles ,n°101,juillet 1931,pp.2-5

60) عابدة، حباطي، **التجنس وموقف الجزائريين منه 1919-1939**، مذكرة

ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2003-2004،

ص.177.

61) سعد الله، **الحركة الوطنية 1930-1945**، مرجع سابق، ص.29.

62) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص.374.

63) عبد الكريم، بوصفصاف، **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات**

الجزائرية الأخرى 1931-1945 منشورات المتحف الوطني للمجاهد، المؤسسة

الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، 1996، ص.275.

64) سعد الله، **الحركة الوطنية 1930-1945**، ص.60.

65) pervillé, op, cit, p. 11

66) سعد الله، **الحركة الوطنية 1930-1945**، ص 58

67) Perville, op,cit,P. 69

68) كريمة، بن حسين، **الحياة السياسية في قسنطينة من 1930 – 1945**، مذكرة

ماجستير، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، ص. 196

69) المرجع نفسه، ص. 197

70) أجرون، مرجع سابق، ص. 145

- 71) عباس، ليل الاستعمار، ص. 147
72) الطاهر، عمري، مرجع سابق، ص. 436
73) سعد الله، مرجع سابق، ص. 65
74) الطاهر، عمري، مرجع سابق، ص. 443
75) حربي، مرجع سابق، ص. 110